أمران .. لا بد منهما

هذه التعبئة التى نطلبها ونحرص عليها وننادى بها تحتاج إلى أمرين لا غنى عنهما ، ولا تتحقق إلا بهما .

١ - المناخ السياسى :

الأمر الأول .. هو المناخ السياسى الذى يتيح لهذه التعبئة المتكاملة أن تؤتى أكلها ، وأن تبلغ غايتها ، وأن تحقق أهدافها .

والمناخ الذى نقصده هو الذى يهيئ لجماهير الأمة أن تتنشق أنسام الحرية ، وأن تخط مصيرها بيدها ، وأن تملك حق الولاية والعزل ، وأن تقول للمحسن : أحسنت ، وللمسىء : أسأت .

المناخ الذى نقصده هو الذى يجعل جيش الأمة لحرب أعدائها ، لا لإرهاب أبنائها ، ويجعل مخابراته للتجسس على عورات العدو لا لتتبع أفراد الشعب وإرهابهم بالحرب النفسية وغسيل المخ .. ويجعل أكبر همه المحافظة على سيادة الشعب لا على سيادة شخص أو أسرة أو حزب .

هذا هو المناخ الذي نريده وهذا هو النظام الذى ننشده لا ذلك الذى يخنق أنفاس الشعب باسم الشعب .. ويزهق روح الحرية باسم الحرية .

وهذا يقتضى أن يكون لدينا قدر من الشجاعة لننادى بوجوب تغيير سياسى فى المنطقة العربية لا أن نربت على كتف « صناع » الهزيمة ، وندللهم كما تدلل الأم وليدها الوحيد ، ونرخى لهم العنان ليعبثوا بمقدرات الأمة ومصايرها ويجروها إلى نكبات ونكسات أخر ، بدل أن نأخذ على أيديهم ، ونصرخ فى وجوههم : قفوا مكانكم : ﴿ وَامْتَازُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ (١) ، المجرمون الذين يلبسون لبوس الأبطال المنقذين .

لا بد من تغيير سياسى فى المنطقة العربية . تغيير جوهرى لا عرضى .. تغيير حقيقى لا صورى ، تغيير فى نفس الرواية الممثلة لا فى الوجوه والأدوار فحسب . تغيير يصحح الأوضاع المنحرفة ، ويقوِّم الأنظمة العوجاء ، ويقيم الحكم على العدل والأخوة والشورى ، وهى الركائز التى أراد الله أن يقوم عليها بناء الدولة فى الإسلام .

ثم لا بد من تغيير سياسى تتفرغ معه الجيوش للحرب والجهاد لا للسياسة وإدارة الشركات .

فالأمة لم تنفق مئات الملايين على جيوشها تدريباً وتسليحاً لتحترف السياسة بل لتحترف القتال .

---

(١) يس : ٥٩

ومن الظلم الصارخ - وهو أيضاً من العبث - أن يكلف بضعة مئات أو آلاف من أبنائنا وإخواننا الفدائيين عبء مقاتلة إسرائيل بحصونها وطيرانها ودباباتها وقواتها النظامية المجهزة بأحدث سلاح ، على حين تظل جيوشنا المكونة من مئات الألوف تستنزف كل عام الأموال الضخمة من مواردنا وأقوات شعبنا ، ودون أن تقدم شيئاً غير الاستعراضات العسكرية فى المناسبات الوطنية والثورية !!

هذا هو النظام الذي نطالب به ونؤمن بضرورته ، وخاصة فى هذه المرحلة من تاريخنا . وأول سماته أن يرفع هذا الشعار ويتبناه : « الجيش للحرب والجهاد لا للسياسة ، الجيش لقهر العدو لا لقهر الشعب » .

وثانى سماته : أن يحقق الحرية السياسية للشعب .. حرية الحقوق لا حرية الفسوق . الحرية التى تحمى الحرمات لا التى تغذى الشهوات . الحرية التى تجرىء الفرد العادى من الناس أن يقول لصاحب السلطان : واللّه لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا .. فلا يُعتقل بعدها ولا يُسجن ولا تجره الزبانية إلى ساحة التعذيب ، ليقر ويعترف .. مَن أوحى إليه بهذه الكلمة ؟ ومَنْ مِنَ الناس يوافقه عليها ؟ وماذا ينوى أن يصنع بعدها ؟ وأين يخزن السيوف التى سيقوِّم بها عوج السلطان ؟

أجل .. إن أخص ما يميز هذا النظام المنشود أن يرفع السياط عن ظهور الشعب ، ويرفع سيف الإرهاب عن رقابه . ويشيع فى الناس جواً من الحرية والأمن تستطيع معه القلوب أن تخفق ، والعقول أن تفكر ، والألسنة والأقلام أن تعبِّر وتقول للظالم : يا ظالم ، وللضارب : كُفَّ يدك ، واتق اللّه - دون أن يتخطفها « كلاب الصيد » إلى المعتقلات والسجون ، بعد محاكمات هزلية بيِّناتها : السوط والنار والجليد ، أو بغير محاكمة أصلاً .

لا بد من تغيير سياسى ينتزع السُلطة من أيدى الطغاة المستبدين ، ويردها إلى الأمة لتختار لنفسها القوى الأمين ، الذى يسخِّر طاقته لإرادة الأمة لا الذى يسخِّر طاقات الأمة لإرادته ، لتختار الذى يجعل هواه فى خدمة الشعب لا الذى يجعل الشعب فى خدمة هواه . القوى الأمين ، الذى يرحب بالنقد ، ويعترف بالخطأ ، ويقول ما قاله ابن الخطاب على المنبر : « رحم اللّه امرءاً أهدى إلىّ عيوب نفسى » . ويجرىء الشعب على نقده فيقول : « الحمد للّه الذى جعل فى المسلمين مَن يقوِّم إعوجاج عمر بحد سيفه » ..

وحين قال له رجل : اتقِّ اللّه يا عمر .. فنهره بعض مَن سمعه ، قال عمر : « لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها » .

فإن شر ما تصاب به الأمم هو ذلك الصنف من الحكام الفجرة العتاة ، الذين يحطمون كل قوة إيجابية فى شعوبهم ، ليسلس لهم قيادها ، ويسلم لهم حكمها بلا معارضة ولا إنكار .

هؤلاء هم الذين يقربون « ساعة » الأمم ، ويدنونها من يوم هلاكها وخرابها ، ولكل أمة « ساعة » تأتى بإتيان أسبابها .

وقد جاء فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ قال : « إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة » قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » .

وكان أول ما قرَّب ساعة الشعب العربى هو هذا الطراز من طغاة الحكام الذين لا يعبدون إلا مناصبهم ، فلا يرعون للّه عهداً ولا حرمة ، ولا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة .

هؤلاء الحكام الطغاة الذين يحسبون الشعوب قطعاناً تُساق ، هم الصناع المهرة للهزائم الكبرى ، وهم أكبر مُوَرِّد للنكبات والنكسات ، فى حياة أمتنا .

وهم الحلفاء الأوفياء للصهيونية العالمية ، الأمناء على تنفيذ مخططاتها وترجمتها من أحلام إلى واقع ، ومن نبوءات إلى حقائق .

إى وربى ..

إن هؤلاء الحكام الذين يدّعون الإخلاص والوطنية هم أكبر عون للصهيونية وأعظم أدوات لتحقيق أهدافها ، أرادوا أو لم يريدوا.

إن الصهيونية العالمية لو حكمت بنفسها بلاد العرب ، أو استأجرت أناساً ببلايين الدولارات ليفسدوا لها أمة العرب ، ويدمروا مقوماتها وخصائصها ومعنوياتها ما استطاعت أن تنجز معشار ما يصنعه هؤلاء الحكام بشعوبهم .

لقد جرُّد هؤلاء الحكام هذه الشعوب من كل أسلحة القوة ومن كل معانى المقاومة .

لقد أذلوا كرامتها ، وأهدروا آدميتها ، وسلّطوا عليها سيف الإرهاب ، وسوط العذاب ، حتى سكتت على الضيم ، وأغضت العين على القذى ، وجرّت الذيل على الهوان .

لقد خنقوا كل فكر حر ، وكسروا كل قلم حر ، وأخرسوا كل صوت حر ، ولم يسمحوا بالعيش والظهور إلا لحملة القماقم ، ومحرقى البخور ، بين أيدى الظلمة المستبدين .

لقد غلت فى عهدهم المعيشة ورخص الإنسان ، وعمرت المراقص وخربت المساجد ، وضُيِّق الخناق على الأفكار ، وأُطلِق العنان للشهوات . وأُكرِم أهل النفاق ، وأُهينَ أهل الإيمان .

أولئك هم الذين بدّلوا نعمة اللّه كفراً وأحلُّوا قومهم دار البوار .

لقد أحسن الشاعر « نزار قبانى » حين صوّر هؤلاء الطغاة وموقفهم من الحريات ومن الشعوب ، فقال :

« لو أحد يمنحنى الأمان

لو كنتُ أستطيع أن أقابل السلطان

قلت له : يا سيدى السلطان .

كلابك المفترسات مزّقت ردائى ..

ومخبروك دائماً ورائى

عيونهم ورائى ....

أنوفهم ورائى ..

أقدامهم ورائى ..

كالقدر المحتوم ، كالقضاء ..

يستجوبون زوجتى ..

ويكتبون عندهم أسماء أصدقائى ...

يا حضرة السلطان

لأننى اقتربتُ من أسوارك الصماء

لأننى ...

حاولتُ أن أكشف عن حزنى وعن بلائى ..

ضُربتُ بالحذاءِ ..

أرغمنى جندك أن آكل من حذائى ..

يا سيدى ..

يا سيدى السلطان ..

لقد خسرتَ الحرب مرتين

لأن نصف شعبنا

ليس له لسان ..

ما قيمة الشعب الذى

ليس له لسان ؟

لأن نصف شعبنا

محاصَرٌ كالنمل والجرذان

فى داخل الجدران ..

لو أحد يمنحنى الأمان

من عسكر السلطان

قلتُ له :

لقد خسرتَ الحرب مرتين

لأنك انفصلتَ عن قضية الإنسان » ...

فإذا كنا نريد لأمتنا أن تنتصر ، وكنا نريد من أمتنا أن تجاهد ، فلنزح من طريقها هذه الحجارة التى تعوق سيرها . هذا الإرهاب الحاكم الذى يفعل بأنفس الأمة ما تفعله الأمراض الفتاكة بأجسامها .

إن الجهاد لا يقوم إلا على الرجال ، والرجال لا ينشأون إلا فى ظلال الحرية ، أما تلك الأنظمة البوليسية المتجبرة على خلق الله ، فلن تخلق إلا شعباً من العبيد . والعبيد إنما يحسنون فن الخدمة والطاعة ولكن لا يحسنون فن البطولة وصناعة الموت .

ولقد روت كتب الأدب أن عنترة العبسى كان - لسواد لونه - غير محظى عند أبيه ، وكان يعامله معاملة العبيد ، كل مهمته أن يرعى الجمال ويحلب النوق ، فلما أغارت يوماً إحدى القبائل على عبس ، وكاد المغيرون ينتصرون ، وعنترة يقف موقف المتفرج ، كأن الأمر لا يهمه - قال له أبوه : كر - يريد منه أن يشترك فى الذود عن القبيلة - فقال له عنترة : العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحسن الحلاب والصر .. فقال الأب : كر وأنت حر .

وهنا ظهرت بطولة العبسى الأسود راعى الإبل وحالب النوق ، فقلبت موازين القوى ، وردت المغيرين على أعقابهم مخذولين . وكان ذلك بتأثير الشعور بنعمة الحرية : « كر وأنت حر » .

* *

٢ - لا بد من صلاح الدين :

والأمر الثانى الذى لا بد منه لتحقق التعبئة المنشودة غايتها المرجوة هو القائد .

فبدون هذا القائد سيظل هناك سؤال يدور على الشفاة ، ويجول فى الخواطر ، ولا يجد الجواب .

يقول هذا السؤال : لقد دعوتَ إلى الجهاد ودعوتَ إلى التعبئة من أجله ، فمَن الذى يستنفر الأمة لهذا الجهاد ، ويجمعها عليه ، ويعدها للقيام بأعبائه ، ويجند طاقاتها المادية والمعنوية لخدمته ؟

إن الذى يقوم بهذا فى نظر الشريعة الإسلامية هو « الخليفة » أو « الإمام » الذى يخلف رسول ﷺ فى قيادة الأمة الإسلامية مادياً وروحياً . فهو إمامها فى الصلاة ، وأميرها فى الحج ، وقائدها فى الحرب ، ورائدها فى السياسة .

إن نصب هذا الخليفة ليس نافلة فى الإسلام ، بل هو فريضة من فرائضه ، والأمة مسئولة بالتضامن عن إيجاده ، والمسلمون آثمون إذا عاشوا بغير خليفة ، يجمع شتاتهم ويقود سفينتهم ، بشريعة ربهم . وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « مَن لقى اللّه وليس فى عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية » [١] .

---

(١) رواه مسلم .

ولقد عرفت الصهيونية الماكرة قيمة الخلافة - على ما كان بها من علل وعيوب - فى تجميع المسلمين عند الشدائد والأزمات . فكادت ما وسعها الكيد لتحطيم هذه القلعة الإسلامية العتيدة ، واستطاعت بذهبها ونفوذها ودهائها وأدواتها المبثوثة فى كل مكان ، وأجهزتها العلنية والخفية كالماسونية وما شابهها - أن تهدم الخلافة العثمانية التى رفض سلطانها أن يبيع شِبراً من فلسطين مهما أغراه اليهود بعشرات الملايين وتقديم المساعدات والخبرات ، لشخصه ولدولته .

وهكذا هدمت هذه القلعة الإسلامية ، وتمزقت البلاد التى كانت تضمها تحت رايتها ، وأصبحت نهباً للمستعمرين الذين قاتل العرب معهم ضد إخوانهم الأتراك المسلمين .

وترك تحطيم الخلافة « فراغاً » فى العالَم الإسلامى ، لا زلنا نشعر به ونعانى آثاره إلى اليوم .

والآن وبعد أن هدمت الخلافة بكيد الصهيونيين ومساعدة العلمانيين يبقى السؤال حائراً .. مَن الذى يعبىء الأمة للجهاد ويعدها ليوم اللقاء ؟

هنا تشرئب الأعناق ، وتهفو القلوب ، وتتطلع الأنظار إلى القيادة المؤمنة التى تقود الأمة إلى « حطين » ثانية ، ترد الكرامة

الضائعة ، والحق المسلوب ، والوطن المنهوب .. لا بد إذن من « صلاح الدين » .

وما صلاح الدين ؟

إنه ليس البطل « الأسطورى » الذى يحمل فى أصبعه خاتم سليمان . ولكن « صلاح الدين » يعنى الحاكم المسلم الذى يلتزم بمنهج الإسلام ، وأحكام الإسلام ، وأخلاق الإسلام .

إنه الحاكم الذي يجعل أكبر همه ، وشغل فكره وقلبه ، هو نصرة الإسلام ، وتحرير أرضه واسترداد كرامته ، ورفع رايته فى الآفاق ، إنه القائد الذى يجند طاقات الأمة كلها للجهاد : المادية والبَشرية ، ويكون هو بخُلُقه وسلوكه قدوة لأمته فى الزهد والتواضع والتقوى والإخلاص للّه ، وإيثار الآخرة والإعراض عن زخارف الدنيا .

إنه الحاكم الذى لا يضيع درهماً من مال ولا ساعة من زمن ، ولا قليلاً من طاقة فى غير خدمة المعركة المقدسة ، وما تتطلبه من تعبئة وإعداد ، إنه لا ينفق الجهود والأموال فى الدعاية لشخصه ، ولا فى التجسس على شعبه ، ولا فى تصفية معارضيه ، والغدر بكل مَن يراه خطراً عليه ، ولو كان أقرب الناس إليه .

إنه الحاكم الذى يوالى مَن والى المسلمين ، ويعادى مَن عادى المسلمين ، ولا يواد يوماً مَن حاد اللّه ورسوله . ولو كان أباه أو ابنه أو أخاه .

إنه ليس بطلاً وطنياً ولا قومياً ، ولكنه بطل إسلامى ، لا ينتمى إلا إلى الإسلام وأمة الإسلام .. وقد كان « صلاح الدين » الأول رجلاً كردى الجنس والأصل ، ولكنه الذى اختارته الأقدار ، لينقذ القدس وفلسطين ، وينقذ معها كرامة العرب والإسلام . ومَن يدرى لعل « صلاح الدين » المنتظر يجىء من باكستان أو تركيا أو نيچيريا أو الصومال .. إن « صلاح الدين » الذى ننتظره ليس « مَلَكاً » يهبط من السماء ، فى غسق الليل ، ولكنه « رجل » يخرج من الأرض فى وضح النهار .

وسيخرج حين يتهيأ المجتمع لمثله ، ويصبح أهلاً لظهوره ، وتقوى فيه إرادة العودة إلى الإسلام « وكما تكونوا يُوَّل عليكم » إن بطولة هذا القائد ، وشجاعة هذا الحاكم المنتظر ، تتجلى أول ما تتجلى فى التمرد على أصنام الحضارة الغربية ورفض الخضوع لمفاهيمها وقيمها ، والتصميم الحاسم على الرجوع إلى الإسلام .. كل الإسلام .

* * *

● مسئولية الفكر :

ولكن أليس هذا هو الطريق المسدود ؟ وهو « الدور » الذى يصفه علماء المنطق ؟ الطريق إلى الخلاص هو الجهاد ، والجهاد يقتضى التغيير والتعبئة للأمة ، والتغيير والتعبئة يحتاجان إلى

القيادة المؤمنة ، والقيادة لا تظهر إلا فى أمة تستحقها .. فكيف التخلص من هذا « الدور » ؟ الأمة تحتاج إلى قيادة والقيادة تحتاج إلى أمة ؟

والحق أنه لا دور ولا تناقض ، فظهور القائد المنشود والحاكم المرتقب يحتاج إلى أرض حرة يرتكز عليها ، وإلى كتلة قوية تشد أزره ، وإلى تيار فكرى ينادى به ويُشعر الأمة بضرورة وجوده .

وهنا تبرز مسئولية الفكر ورجال الفكر ودورهم فى إعداد الأمة وتعبئتها وتهيئتها للمرحلة الحاسمة ، مرحلة العودة إلى الإسلام ، بعد التخلى عن الإسلام ، ومرحلة العودة إلى الإسلام هى التى نترجم عنها بظهور « صلاح الدين » المرتقب .

* * *

● غفلة هنا وتفكير هناك :

ألا ليتنا نفكر بعمق كما يفكر عدونا الذى حدد هدفه ووعاه من أول يوم ، وحدد له وسائله ، وخطط له مراحله ، ودرس العقبات التى تواجهه ، وكيف يتغلب عليها . والعوامل التى تساعده وكيف يستفيد منها .

لقد كان يعلم أنه كان يريد شيئاً خطيراً ، وهدفاً كبيراً ، فكان يفكر على مستوى غايته وهدفه .

كان يعلم أن الشعب اليهودى قد قطّعه اللّه فى الأرض أمماً ، ولم يعد بين أبنائه رابطة لغوية ولا جنسية ، ولا وطنية ، فقد توزعوا بين مختلف اللغات والأجناس والأوطان . ولم يبق لهم جامع يوحد بينهم ، ويربط بين قلوبهم إلا الدين اليهودى ، فلا بد إذن من إحياء الدين فى نفوسهم ليكون هو الأساس الذى يتجمعون عليه ، والباعث الذى يحفزهم إلى تحقيق الهدف ، والهدف نفسه هدف دينى ، كما علمنا .. وهذا معنى قول الصهيونى هرتزل : « إن عودتنا إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية » .

وكان العدو الماكر يعلم أنه يتصدى لمقاومة أمة أساسها الدين ، وإذا تحركت يوماً باسم الدين وتحت رايته فلن تصدها قوة فى الأرض . فكان عليه أن يوجه عملاءه وتلاميذه ، وقواه المستورة والظاهرة لتُعمل معاول الهدم فى ذلك الأساس المكين وتحول بين المسلمين وبين عودتهم إليه .

وهكذا بدأ العدو الصهيونى يعمل وفق مخططه فى ميدانين ، ميدان سلبى : هو تخريب كياننا ، وتمزيق أمتنا .

وميدان إيجابى : هو بناء نفسه مادياً وأدبياً ، بناء يمكنه من تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة ، رغم ضعف إمكاناته البَشرية من حيث العدد ، وسوء وضعه الجغرافى والاستراتيچى من حيث

الامتداد والعمق . ورغم الحصار الاقتصادى الذى كان يتوقع أن يُضرب عليه .

فماذا كان موقفنا من القضية ؟

إنه الذهول والغفلة حتى وقعت الكارثة وحلّت النكبة فى ١٩٤٨

وبعد النكبة الأولى أصبحت قضية فلسطين سلعة للمساومة فى سوق السياسة العربية وفى سوق الفكر أيضاً ، كل زعيم أو رئيس يريد أن يتاجر بها ويكسب من ورائها حتى وقعت النكبة الثانية سنة ١٩٦٧ وكل أصحاب مذهب يريدون أن يستخدموا القضية للكسب المذهبى كذلك . والمخلصون يحاولون الإنقاذ . ولكن معظمها محاولات انتحارية أو ارتجالية . إن الذى نريده اليوم أن يحتل الفكر دوره فى القضية بدلاً من الارتجال والانتحار أو الغوغائية ، و« الديماجوجية » السياسية ، أو استغلالها لخدمة مبادىء دخيلة على الأمة ، لا تجنى من ورائها غير الخراب .

* * *

● **الفكر الذى ننشده :**

والفكر الذى نريده هو الفكر الحر ، الفكر الأصيل ، الفكرالشجاع ، الفكر الواقعى ، وهذه الأوصاف كلها وإن بدت

مختلفة هى فى الحقيقة صفة واحدة للفكر الحق الذى لا يستحق اسم الفكر غيره . إلا من باب المشاكلة ، أو التجوز . وأعنى بالفكر الحر :

ذلك الفكر الذى لا يقبل الرق ولا يرضى أن يباع فى سوق المساومات ، ولا أن يُشترى بمال وإن كان ملء الأرض ذهباً . الفكر الحر هو الذى يأبى الانحياز والتبعية لحاكم أو حزب أو جهة أو معسكر ، ويأبى أن يعمل إلا لنفسه ووفق ما ينتهى إليه هو من مقررات ، ولا ينقاد إلا لما يؤمن به ، لا يغريه الوعد ولا يثنيه الوعيد .

أما الفكر الذي عبَّد نفسه لسلطان الحكم أو لحكم السلطان ، ووقف نتاجه على الإطراء والتسبيح بحمد زيد أو عمرو ، فليس فكراً حراً ، وليس أهلاً لأن يسمى فكراً .

وآية الفكر الحر أن يكون فكراً أصيلاً .

وأعنى بالفكر الأصيل أن يكون نابعاً من تربتنا ومن ضمير أمتنا . لا دخيلاً عليها ، ولا أجنبياً منها ، فإن تسُّول الأفكار من هنا وهناك لا تثرى به أمة . وكل فكر غريب عن روح الأمة وعقائدها وتراثها أشبه بالدم الغريب الذى يُنقل من جسم قوى إلى جسم ضعيف مخالف له فى فصيلة الدم . إن هذا الدم المخالف

لا يُكسب الجسم الضعيف قوة ولا حياة . وإنما يفضى به إلى موت محقق .

لست أدعو إلى إغلاق النوافذ الفكرية بيننا وبين العالم من حولنا ، وإنما أريد أن نتخير من الأفكار ما يلائم طبيعتنا ، ويتفق ومواريثنا ، وينسجم وشخصيتنا دون أن نتحيز لفكر على آخر ، ودون أن نفقد أصالتنا وإبداعنا ، أريد أن نقف من كل فكر أجنبى موقف الأحرار لا موقف العبيد ، وموقف الأغنياء لا موقف الشحاذين .

إننا أمة ذات أهداف وذات رسالة وذات تاريخ ، ولا نسمح لأحد أن يسلبنا شخصيتنا ويملى علينا منهجه أو قواعده فى التفكير ، فنحن لم نُخلق لنُجَر من آذاننا ولا لنقول للمخلوقين أيّاً كانوا : سمعنا وأطعنا .. إننا لا نستطيع أن نحرر أرضنا إذا لم نحرر نحن أنفسنا وأفكارنا . ومن المثير حقاً أننا نحارب اليهود ، ومع هذا نجد من بيننا مَن يتتلمذون على أفكار اليهود فى الجوانب النفسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولا داعى لذكر الأسماء فهى معروفة [1] .

---

(١) إن تلاميذ « فرويد » و« ماركس » و« دوركايم » فى الوطن العربى ليسوا بالقليل . وهؤلاء الثلاثة كلهم يهود وقد قام كل منهم بدور خطير فى تحطيم القيم العليا للمجتمع فى جانب من الجوانب .. « فرويد » فى مجال النفس ، و« ماركس » فى الاقتصاد ، و« دوركايم » فى الاجتماع .

على أن الضرورى لنا - وخاصة فى هذه المرحلة من تاريخنا - أن نوحد مصادر الإلهام لتفكيرنا ، فإن وحدة الفكر شرط أساسى للنجاح فى أى ميدان ، والظفر فى أى معركة . وتعدد مصادر الإلهام لن يجعلنا أمة واحدة ، بل أمماً شتّى لكل منها غايته واتجاهه ومنهاجه ، وفقاً لنوع المصادر المستوحاة : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (١) .

وأعنى بالفكر الشجاع ذلك الذي لا يهوله ضخامة الأصنام ، وإن أحيطت بهالات التقديس والتعظيم ، وكثر حولها السدنة الطائفون والمتمسحون ، ولا يتردد فى حمل المعول لهدمها ، وتعريتها مما أحاط بها من زيف وأساطير ، لا يخاف سطوة المنتفعين الخادعين ، ولا غضبة الدهماء المخدوعين .

الفكر الشجاع ذلك الذي يتقبل كل نقد نزيه ، بل ينقذ نفسه بنفسه ولا يستنكف من الاعتراف بالخطأ إذا تبين له - موقناً أن العصمة لله وحده - وأن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل .

الفكر الشجاع هو الذى لا يداهن ولا يتملق ولا يرائى ، ولا يجعل

---

(١) الأنعام : ١٥٣

كل همه أن يثير ويعجب بل أن يبين ويكشف . الفكر الشجاع هو الذى لا يتأثر بدوى الطبول وصيحات المعجبين أو الناقمين ، ولكنه ينظر إلى الأمور بحيدة وإنصاف - حسب الطاقة البَشرية - محاولاً النفاذ إلى ما وراء المظاهر ، ليلمس الأغوار ويدرك الأسرار ، ويكشف الأستار .

وأعنى بالفكر الواقعى الفكر الذى يعرف طبيعة الأمة ومقومات شخصيتها الأصيلة ، وينفذ من وراء المظاهر السطحية إلى أعماق روحها المستمدة من عقيدتها وتاريخها وتراثها ، ويبنى حكمه على أساس هذا الواقع الملموس . إن الفكر الذى يتجاهل واقع الأمة ويبنى فى الهواء فكر مخرِّب ضار .

فإذن إن الدين فى أمة كأمتنا هو المقوِّم الأول لشخصيتها ، والمحور الأول لتفكيرها ، والموجِّه الأول لمشاعرها ، فالمفكر الأصيل هو الذى يتفاعل وهذا الواقع ويستخدمه لكسب المعركة مع العدو أو مع الطبيعة أو مع الظروف .

لست فى مقام الذي يقيم الأدلة على صحة العقيدة التى تؤمن بها الأمة ، إنما الذى يهمنى هو استغلال طاقات الأمة كلها فى معركتها الكبرى ، والطاقة الروحية لا يستطيع مكابر أن يجحد

قوتها وتأثيرها وإيحاءها ، والإيمان من غير شك أعظم مولِّد للطاقة الروحية ، فكيف يجوز لمفكر أن يغفل هذه الطاقات المذخورة فى كيان الأمة ، ويتجاهل إيمانها بربها ودينها ، لا لشىء إلا ليصفه بعض الناس بأن فكره « عصرى » .

إن الإيمان باللّه وبرسالاته وبالدار الآخرة ، واقع مُحَس يعيشه أبناء الأمة ، ويكيفون تفكيرهم ورغباتهم وسلوكهم وفقاً له ، حسبما أوتوا من قوة الإرادة وحسن التربية ، ولا بد من النزول على حكم هذا الواقع . ومخاطبة الأمة بمنطقه ، وتوجيهها بمقتضاه واستخراج قواها المذخورة بسلطانه .

يقول الدكتور « چوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » [1] :

« تأثير دين محمد فى النفوس أعظم من تأثير أى دين آخر ، ولا تزال العروق المختلفة التى اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان ، أجل ، قد تجد بين المسلمين عدداً قليلاً من الزنادقة والأخلياء ، ولكنك لن ترى مَن يجرؤ على انتهاك حُرمة الإسلام فى عدم الامتثال لتعاليمه

---

(١) ص ٤١٧ ، ٤١٨

الأساسية كالصلاة فى المساجد وصوم رمضان الذى يراعى جميع المسلمين أحكامه بدقة مع ما فى هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها فى صوم الأربعين الذى يقوم به النصارى ، كما شاهدتُ ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية التى زرتها فى آسيا وإفريقية ، ومن ذلك أن أتيح لى أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرنين فى الأصفاد ومتهمين بأنواع الجرائم ، فقضيتُ العجب حتى رأيتهم ، وهم الذين خرقوا حُرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقصى العقوبات ، لم يجرءوا على انتهاك تعاليم النبى ، وحين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا للّه الواحد القهار ويعبدوه .

وعلى مَن يرغب فهم حقيقة أمم الشرق - التى لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلاً - أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها ، وللدين فى التأثير الضئيل فينا نفوذ عظيم فيهم ، وبالدين يؤثر فى نفوسهم ، ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين منذ الثورة الحديثة التى ضرجت مصر بالدماء .

وإن الرجل الذى يخاطب العرب باسم اللّه يطاع لا محالة ، ما علموا أنه يتكلم باسم اللّه حقاً ، فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق الذي استطاع العرب أن يفتحوا العالم به فيما مضى ، وهم اليوم يصبرون به على قسوة الصبر . » .

هذا رأى فيلسوف محايد ، ومراقب أجنبى ، فى طبيعة هذه الأمة ، وتأثير الدين فيها ، فمَن أراد أن يستثير البطولة فى أعماقها ، وأن يستخرج منها أقصى مكنوناتها وذخائرها ، فليخاطبها باسم اللّه ، وليقدها بزمام الإيمان ، وتحت راية التوحيد.

هنالك تصنع العجائب ، وتأتى بالمعجزات ، وتعيد تاريخها الأول من جديد !

* * *